(الدكتور يوسف خطار محمد)

التصوف

والأخلاق الإسلامية

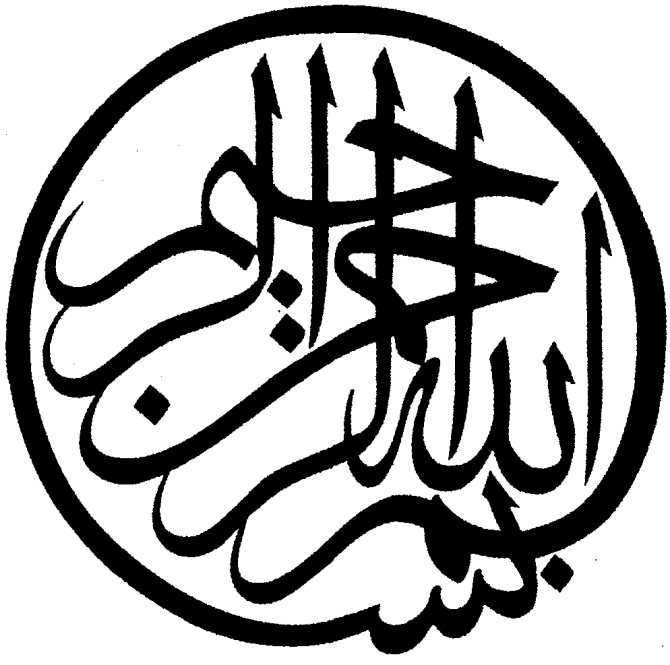
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ذي الفضل والنعم والجود والكرم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، وأطلعه على سلوكَ أهل الفضل والهمم، من تأسوا بهدي خير الأنام والأمم، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بالله، وأشدهم له خشية وتقوى، من تركنا على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

والصلاة والسلام الأكملان الأتمان الأطهران على سيدنا محمد النبي المليح، صاحب المقام الأعلى واللسان الفصيح، وعلى آله وأصحابه أصحاب المدد العالي والقدم الصحيح ونوابه وأحبابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن السلوك القويم والسليم في التعامل مع الخالق والخلق والنفس من أهم المهمات لكل مسلم.

ولكي يتعرف السالك على الطريقة المثلى في سلوكه، فلا بد من صحبة عارف بالله، متبعاً لهدي الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم طبيباً لأدواء النفوس، وهذا السلوك النوراني ينبع عن الإحسان الذي هو مراقبة الله عز وجل.

وهذا ما يسمونه التصوف.

وحقيقة المتصوف السالك:

من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم فيما يخالف ظاهر الكتاب والسنة، ومن لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

قال الجنيد رضي الله عنه: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات.

أي: شدة المجاهدة، ففتح الله عليهم أسراراً عظيمة لصدقهم وإخلاصهم.

لذلك اختصت السادة الصوفية:

بالعرفان، وفقه القلوب، وسواحل الأسرار، وهوى النفوس، ومعرفة الباطن، ورفع الحجب والأستار، واستدعاء التجليات والأنوار، وواجبات الإيقان، وتلون الأحوال، وثبات المقامات، ومواجيد القلوب، وآداب المجاهدات، وحالة الصدق بالإخلاص، والتوكل بالتفويض والتسليم.

وبمعنى آخر فالصوفية هم فقهاء القلوب والنفوس.

ولا يصل المريد السالك إلى مقام المرشد المسلك المربي، إلا بعد أن يتخلق بالمقامات النورانية ويثبت ويستقيم عليها.

ومن أهم هذه المقامات:

الإخلاص لله عز وجل ـ المراقبة لله عز وجل ـ الزهد عن الدنيا وشهواتها

الورع	التوبة	الحلم	التسليم
الصفاء	الصدق	التوكل	الرجاء
المحبة	الصبر	الذكر	التقوى
التواضع	الخوف	الرضا	الاستقامة

وفي هذا الكتاب شرحت أهم المقامات النورانية التي ينبغي للسالك أن يتخلق بها وتكون سجية له.

وهذا الكتاب خصصته لطلاب العلم في جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية.

أسأل الله تعالى أن يكون عملي هذا وكل أعمالي خالصة لوجهه الكريم.

والحمد لله رب العالمين

ما هو تعريف التصوف؟

التصوف: هو مقام الإحسان، والتزكية، والمراقبة، والإخلاص في العمل، وصرف باطن الإثم والفواحش عن الإنسان وذلك بتطهير القلب من أدران الكبر، والرياء، والنفاق.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾ (٢)

والتصوف: ذوق ووجدان وإلهام وإشراق.

والتصوف: توبة وصفاء ووفاء وفناء.

وينبغي أن يكون الصوفي فانياً عن أوصافه، باقياً بأوصاف الحق، ليس فناء جسد في جسد ولا روح في روح، بل فناء إرادة في إرادة، وأخلاق في أخلاق، وصفات في صفات إذا تأثر بالتصوف.

ومن تعاريف التصوف:

عرفه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله بقوله:

هو علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية. وقال الجنيد رضي الله عنه: التصوف مشيد بالكتاب والسنة.

---

(١) [سورة الأعراف، الآية: ٣٣].

(٢) [سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨-٨٩].

وعرفه سيدنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه بقول:

هو تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية.

ما هو تعريف الصوفية؟

قال ذو النون المصري رضي الله عنه:

الصوفية هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء.

وقيل: هم بقية من بقايا أهل الصُّفّة.

وقيل: هم الذين ساروا على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم كالصحابة أهل الصفة والتابعين وتابع التابعين كالجنيد البغدادي وأقرانه إلى يومنا هذا.

وقيل: هم العلماء بالله بأحكام الله، العاملون بما علمهم الله تعالى، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل[1].

وقال ذو النون رضي الله عنه:

رأيت امرأة ببعض سواحل الشام فقلت لها: من أين أقبلت رحمك الله؟ قالت: من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.

فقلت: وأين تريدين؟ قالت: إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، قلت: صفيهم لي فأنشأت تقول:

قـــوم همـــومهم بالله قـــد علقـــت فمـــالهم همـــم تســـمو إلى أحـــد

---

(١) الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية (٣٩).

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حسن مطلبهم للواحد الأحد

ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذات والولد

ولا للبس ثياب فائق أنقٍ ... ولا لروح سرور حل في بلد

إلا مسارعة في إثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الأبد

ما هو تعريف الصوفي؟

قال الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه:

الصوفي من صفى سره من كدورات الأكوان، وما رأى لنفسه على غيره مزية.

وقال الإمام بهاء الدين الرواس رضي الله عنه:

الصوفي التقي: الذي يصير مع الحق أين كان ولا ينحرف عنه.

وقال الشيخ بشر بن الحارث رضي الله عنه:

الصوفي من صفا قلبه لله عز وجل.

وقال الشيخ سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه:

الصوفي: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر.

وقال الشيخ أبو تراب النخشبي رضي الله عنه:

الصوفي لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء.

وقال الشيخ أبو علي الروذباري رضي الله عنه:

الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وأذاق الهوى طعم الجفا، ولزم طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكانت الدنيا منه على القفا[1].

ورحم الله القائل:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... وظنه البعض مشتقاً من الصوفِ
ولست أمنح هذا الاسم غير فتىً ... صفا فصوفي حتى سمي الصوفي

ما هو منشأ التصوف؟

من المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر (التصوف) وذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات في حبه تعالى، ومن ثم سموا (بالمتصوفين).

وأول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الذي ولد في الكوفة وأمضى سواد حياته في الشام وتوفي في سنة ١٥٠هـ.

وإن أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري (٢٤٥هـ) تلميذ الإمام مالك والذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة (٣٣٤هـ).

ومنهم من قال: التصوف مشتق من الصوف، وقد كان يلبسه بعض العباد والزهاد الذين لا يميلون إلى الترف، وقدوتهم في ذلك أهل الصفة

---

(١) انظر: الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية (٣٥-٣٦).

قال الله فيهم: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[1].

وأثر عن سيدنا الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال:

لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف.

ما هي أسس التصوف؟

إن التصوف الإسلامي علم جليل ونحلة عظيمة القدر، وثبت بالأدلة القوية أنه إسلامي المنشأ وبذلك أضحى موصلاً للسعادة في الدنيا والآخرة، وهو الدواء الذي يشفي صاحبه من أمراض النفس، والمنهاج الذي يزكي النفس ويصفي الروح، وهو مرآة الحياة الروحية الإسلامية التي قوامها التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل لتزكو النفس وتسمو الروح بالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، ومن أهم مقاصده خمسة أمور:

١. صفاء النفس ومحاسبتها.

٢. قصد وجه الله.

٣. التمسك بالفقر والافتقار.

٤. توطين القلب على الرحمة والمحبة.

٥. التجمل بمكارم الأخلاق التي بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم لإتمامها.

---

(١) [سورة الكهف، الآية: ٢٨]،

ما هي أهمية التصوف؟

قال الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه:

هذا الدين الجامع، باطنه لبُّ ظاهره، وظاهره ظرف باطنه، لولا الظاهر لما بطن، لولا الظاهر لما كان ولما صح، القلب لا يقوم بلا جسد، بل لولا الجسد لفسد، والقلب نور الجسد.

هذا العلم (التصوف) الذي سماه بعضهم الباطن هو إصلاح القلب.

إن الشارع أمر الإنسان بتكاليف في خاصة نفسه وترجع إلى قسمين:

قسم يتعلق بأعماله الظاهرة، وقسم يتعلق بأعماله الباطنة.

وبلفظ آخر: أحكام تتعلق بظاهر الجسد، وأحكام تتعلق بباطن الجسد (القلب).

أما الأعمال التي تترتب على الجسد فهي نوعان:

أوامر ونواه، فالأوامر المفروضة هي كالصلاة والصوم والزكاة والحج ....

وأما النواهي المحظورة فهي كتحريم الزنا والسرقة وشرب الخمر وحقوق العباد كافة....

وأما الأعمال التي تترتب على القلب فهي نوعان:

أوامر ونواه، فالأوامر المفروضة: كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر... وكالإخلاص والتوكل والخشوع والصدق والصبر ...

وأما النواهي المحظورة كالكفر والنفاق والحقد والحسد والكبر والرياء ....

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[2].

قال الإمام السيوطي رضي الله عنه: وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها، قال فيها الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: إنها فرض عين [3].

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ما هو تعريف المقام؟

المقام: هو من الإقامة، كالمدخل بمعنى الإدخال والمخرج بمعنى الإخراج.

هو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب، مما يتواصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف.

فمقام كل أحد: موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له.

وشرطه: أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر، ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له لا يصلح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصلح له التسليم، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد [4].

والمقامات كثيرة منها:

التوبة، الإخلاص، الصدق، الصبر، الاستقامة ...

---

(١) [سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨-٨٩].

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) الأشباه والنظائر (٥٠٤).

(٤) الرسالة القشيرية (١٣٢).

مقام التوبة

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات وبدل سيئاتهم حسنات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين الطاهرين المطهرين من أدناس الخطيئات.

أما بعد:

فإن التوبة هي أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى[1].

ومعناها لغة: الرجوع عن الذنب[2].

وأما المعنى الاصطلاحي: فهي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه.

قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله عز وجل لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يُقْلِعَ عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً، فإن فُقِدَ أحدُ الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها[1].

---

(١) اللمع في التاريخ الإسلامي (٤١).

(٢) مختار الصحاح (٦٩).

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة:

قال الله عز وجل: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة))[٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((يا أيها الناس توبوا إلى الله عز وجل واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مئة مرة))[٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما يغرغر))[٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب))[٧].

وقال سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب.

---

(١) رياض الصالحين (٢٥-٢٦).

(٢) [سورة النور، الآية: ٣١].

(٣) [سورة التحريم، الآية: ٨].

(٤) رواه البخاري في ((صحيحه))(٦٣٠٧).

(٥) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٦) رواه الترمذي في ((سننه))(٣٥٣١).

(٧) رواه البخاري في ((صحيحه))(٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة.

وقال سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه: التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود.

وقال لقمان الحكيم لابنه: لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة.

وقال الإمام أحمد الرفاعي رحمه الله: تب بكليتك من رؤية نفسك، ونسبك، وأهلك [1]، فإن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه [2].

وقال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك، فقد يكون آخر ذنب عليك [3].

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: الحسنة نور في القلب وقوة في البدن، والسيئة ظلمة في القلب ووهن في البدن.

وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه: التوبة ترك التسويف.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: ترك العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة.

وقال أيضاً: الاستغفار من غير إقلاع هو توبة الكاذبين [4].

وقال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها [1].

---

(١) حكم السيد أحمد الرفاعي، رقم الحكمة (١٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٦٧٩٣).

(٣) حكم ابن عطاء الله السكندري (١٤٨).

(٤) الرسالة القشيرية (٩٥).

ورحم الله القائل:

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل

امنن علينا بتوبة نمحو بها ... ما كان منَّا في الزمان الأول

فمن أخلص في الإقبال على الله تائباً من ذنوبه غفر الله له، ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[2].

وإذا أراد الله بعبد خيراً وفقه للتوبة، فإن من سعادة المرء أن يوفقه ربه للتوبة والاستغفار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[3] [4].

ومن أراد أن تزداد توبته صدقاً وقبولاً فليصاحب أهل التقوى الذين يخافون الله.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[5].

---

(١) المرجع السابق (٩٧).

(٢) [سورة الزمر، الآية: ٥٣].

(٣) [سورة البقرة، الآية: ٢٢٢].

(٤) انظر: إحياء علوم الدين، باب ((التوبة))، وموسوعة الكنوز النورانية في الخطب المنبرية ليوسف خطار محمد، خطبة ((التوبة في الإسلام)).

(٥) [سورة التوبة، الآية: ١١٩].

فإذا أردنا الإخلاص والخلاص من الخطايا والأوزار فلنلازم الاستغفار في الأسحار وإذا أثقلتنا المعاصي والذنوب فلنضرع إلى الله عز وجل ونناديه بخشوع وخضوع.

قال عزل وجل: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((من لازم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب))[2].

ولقد حذر الله عز وجل من خطر الذنوب وسوء عاقبة التهاون في ارتكابها فقال صلى الله عليه وسلم: ((إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه))[3].

ولا ينزل البلاء وتنتشر المجاعات وتقل الأرزاق وتكثر الهزائم وتشيع الأمراض، وتدب الفرقة في الأمة إلا بارتكاب الذنوب وفعل المعاصي.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

---

(١) [سورة هود، الآية: ٣].

(٢) رواه أبو داود في ((سننه))(١٥١٨).

(٣) رواه أحمد في ((المسند))(٥/٣١٢).

(٤) [سورة الشورى، الآية: ٣٠].